التفكير بين الانسان والحيوان

للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجي

كشفت البحوث النفسية فى مجالى الإنسان والحيوان عن حقيقة قد تطامن من غرور الإنسان بعض الشيء ، تلك هى أن الحيوان لا يسلك سلوكا آليا بحتاً كما ظن ديكارت الفيلسوف الفرنسى ، بل ولا يسلك سلوكا غريزيا بحتاً كما اعتقد الكثيرون زمناً طويلا ، وإنما سلوكه فى كثير من المواقف ينم عن قدر من الذكاء العملى يمكنه من التصرف إزاء ما يجد من مواقف تصرفاً كفيلا بتحقيق أغراضه . فهو لا يهتدى بالفطرة وحدها التى تسم السلوك بطابع الجمود ؛ وإنما هو يعدل سلوكه ويبتكر الوسائل الجديدة ، حتى ليسهل علينا أن نلحظ — لدى الحيوانات العليا على وجه الخصوص — أنماطا من السلوك تتصف بالمرونة وتنم عن قدر من الذكاء لا يقل كثيراً عن ذكاء الأطفال فى نفس المواقف . ومن التجارب العلمية ما يثبت قدرة الحشرات على الاستفادة من التجارب الماضية فى التكييف للظروف الجديدة ، وفى هذا تكمن البذرة الأولى للذكاء .

وكلما صعدنا فى السلسلة الحيوانية زاد ذلك القدر من الذكاء العملى الذى يبلغ أقصاه لدى الكلاب والقردة . وبذلك تتلاشى الأسطورة القديمة التى تفصل فصلا حاسماً باتاً بين عالم الحيوان المحكوم بالغريزة ، وعالم الإنسان المحكوم بالعقل ، وتسفر الحقيقة التى لا مراء فيها : ألا وهى أن الكائنات الحية تنتظم سلسلة متصلة الحلقات من أسفل إلى أعلى ، منطقها التطور من الأشكال الدنيا للحياة إلى الأشكال العليا فى غير ما اختلاف حاد يكسر وحدة الحياة على ظهر الأرض ، وتضيق الشقة الفاصلة بين الإنسان والحيوان . فكلاهما يسلك سلوكا غريزيا وكلاهما يسلك سلوكا عقلياً رائده الذكاء . فما الفارق إذن بين ذكاء النوعين ؟

الإنسان من حيث السلوك العقلى فى قمة الحيوانات ؛ فهو أقدرها على السلوك سلوكا عقليا . هو فى حياته يصارع الطبيعة وأحداثها ، لا بحكم الفطرة فحسب ، بل يفوق الحيوان قدرة على استغلال ذكائه فى صراعه هذا مع الطبيعة . تقسو عليه بردها وقيظها وأمطارها فيهرع إلى الأشجار يتخذ من أغصانها بيوتاً . تتوالى عليه فصول السنة بمضها فيه الخصب ووفرة الغذاء ، وبعضها جدب لاطعام فيه ، فيبتكر الوسائل يتجنب بها المجاعة ، ويهتدى بعد تدبر وإعمال روية إلى ما نعرفه من مختلف أساليب خزن المياه وحفظ الأطعمة ، وعدم الاكتفاء بما تدر الأرض بطبيعتها ؛ فيزرع ويستغل كامن قواها . يخشى هجمات الوحوش الضارية ، وعدوان القبائل المادية ؛ فيتخذ العدة لذلك بصنع الأسلحة مستخدماً كل ما تقع عليه يده من أحجار وأشجار ومعادن . وهو إذ يفعل ذلك يهتدى بذكائه ، بتفكيره العملى الذى يتطور مع الزمن تطوراً يكشف عنه ما لاحظه العلماء المنقبون عن آثار العصور البائدة من تطور الآلة الإنسانية من الآلة الحجرية القديمة إلى الحجرية الحديثة إلى المعدنية ؛ والأسلحة من الأحجار إلى النبال فالخناجر والسيوف فالبنادق حتى القنبلة الذرية فى العصر الحديث .

وهكذا فى كل ميدان من ميادين الحياة يستخدم الإنسان تفكيره وسيلة لتحقيق أغراضه ، وهذا هو الأصل فى التفكير: وظيفة حيوية عملية تعين الحيوان على الصمود فى الحرب الخالدة بينه وبين قوى العالم الطبيعى التى لا تعرف التراجع ، وذلك أن الفطرة وحدها لا تكفل انتصاره .

بيد أن اختلاف التفكير الإنسانى عن التفكير الحيوانى ليس اختلافاً فى المرتبة أو الكمية فحسب ؛ بل هو اختلاف فى النوع أو الكيفية أيضاً . فتفكير الحيوان عملى كله ، هو برمته وسيلة إلى العمل ، إلى الحياة والبقاء . لا يستغل الحيوان قدرته العقلية المتواضعة إلا فى إرضاء مطالبه الغريزية : من الاغتذاء ، والاحتماء ، ورعاية الصغار ، والتناسل الخ . أما الإنسان فبعد إرضاء مطالبه الغريزية يستغل قواه العقلية فى الكشف عن أسرار ما يدركه من ظواهر الكون والبحث عن علل الحوادث التى تقع تحت ناظريه ، وتفسير التغيرات التى تطرأ على مختلف الكائنات . ولا شك أن الحيوان كالإنسان فطر على حب الاستطلاع لكل جديد تجنباً لما قد ينطوى عليه من خطر ، أو طمعاً فيما قد يدره من خير ونعمة ؛ ولكن الإنسان يتجاوز هذه الحدود النفعية فيستطلع أحياناً من أجل المعرفة فى ذاتها ، ويجنى من وراء ذلك لذة لا تقل عن اللذات الجسدية التى يجنيها من وراء إشباع ميوله الغريزية الأخرى .

لذلك كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يفكر أحياناً من أجل التفكير فى ذاته ، بل والذى يجاوز ذلك إلى التفكير فى التفكير : يحصى أساليبه ، ويفتش عن مصادره ، ويسجل